

## الإحتكام إلى العقل



ـ "الإعتقاد بأن كوننا المدهش تطوير بصفة عمياء هو جنون، ولا أقصد بكلمة جنون معناها العامي، بل الأغلب هو المعنى التقني المستخدم في التحليل النفسي. وفي الحقيقة، فإن" مثل ذلك الإعتقاد مصحوب بمظاهر التفكير الفصامي" (كارل شتيرن، جامعة مونتريال، عالم نفس) كسب (مبدأ الأنتروليبي) أي العشوائية قبولاً واسعاً في دنيا العلم. ذلك المبدأ يقتضي بأن يكون خليطاً من المادة المشوهة عشوائياً، وكان ذلك على النقيض في أن" الكون أى من تصميم دقيق متأنٍ كي يخدم الإنسان ويكون مأوىً له. منذ أن رأينا الدليل الموضح أن" مبدأ الأنتروليبي هو صحيح حقيقة، حيث يمتد مجال هذا الدليل من السرعة التي كان يتطوير بها الكون منذ الإنفجار العظيم إلى التوازنات الفيزيائية للذرّات، أي من الشدة النسبية للقوى الأربع الأساسية إلى كيمياء النجوم، ومن الأسرار الغامضة لأبعاد الفضاء إلى نموذج النظام الشمسي في نسقه وطريقة ترتيبه، ونحن أينما نظرنا وجدنا أن" ترتيباً دقيقاً غير عادي كمن في تركيب الكون، كما رأينا التركيبة والتوسيعية للكون الذي نعيش فيه وكيف ضبطنا بما فيها جوه كي نحيا فيه، وشاهدنا كيف يردنا الضوء من الشمس والماء الذي نشربه

والذرّات التي تصنع أجسامنا وكذلك الهواء الذي نستنشقه وندخله لرئتيما، وكل هذا يتلاءم بدرجة مذهلة مع الحياة. بإختصار، عندما نرى أي شيء في الكون فمعنى ذلك أنّنا نواجه تصميماً غير عادي غرضه تعزيز حياة الإنسان ودعمها، وأنّ إنكار حقيقة هذا التصميم يكون تجاوزاً وإرتداداً عن حدود العقل، كما صرّح بذلك العالم النفسي (كارل شترن). إنّ مضمون هذا التصميم واضح جدّاً، ومع ذلك يختفي هذا التصميم ويتحجّب داخل كل جزء من أجزاء هذا الكون مهما كان دقيقاً، كما أنّ قدرته وحكمته لا نهائيان، وكما وضّحت نظرية الإنفجار العظيم أنّ هذا الخالق خلق الكون كله من العدم، وهذا الإستنتاج الذي توصل له العلم الحديث هو حقيقة نقلها لنا القرآن ووضّحها: (إنّ ربُّكُمْ أَنَّ الَّذِينَ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنَّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ رَبُّ الْعَالَمَيْنِ) (الأعراف/ 54). دون مفاجأة يتضح أنّ إكتشاف هذه الحقيقة من قبل العلم أزعج تماماً بعض العلماء وما زال يفعل ذلك، وهؤلاء العلماء هم الذين يوازنون بين العلم والمادية، وهم أناس اقتنعوا أنّ العلم والدين لا يمكن أن يسيرا معاً، ومعنى أن تكون علمياً فهذا مرادف من وجهة نظرهم لأن تكون ملحداً، فهم تدرّبوا على الإعتقاد أنّ الكون وكل الحياة فيها يمكن تفسيره كنتيجة أو محصلة لحوادث تقع بالصدفة، وأنّها مجرّدة كليّاً عن أيّة نية أو قصد في التصميم أو التخطيط، وعندما يواجهه مثل هؤلاء بالحقيقة الواضحة للخلق فيكون إرتباكاً ورعياً طبيعياً متوقعاً. ولكي نفهم ذعر الماديين، يجب أن نلقي نظرة مختصرة على مسألة أصل الحياة. -

أصل الحياة هو أن نطرح السؤال التالي: كيف أنت أوّل الكائنات الحية وجدت على الأرض؟ لقد كان هذا السؤال أحد أكبر المعضلات الشائكة التي واجهت الماديين في القرن الأخير إلى غاية منتصف القرن العشرين.. لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا؟ السبب هو أنّ الخلية الواحدة والتي تعتبر أصغر وحدة للحياة على درجة من التعقيد لا يمكن مقارنته بأعظم الإنجازات البشرية وأكثرها تعقيداً، وقد أوضحت قوانين الإحتمال تلك الحالة وبينت أنّه حتى ولا البروتين يمكن أن يكون قد أتى إلى الوجود بالصدفة. وإذا كان يصح هذا بشأن البروتينات وهي القطع البذرّاء الأكثر للخلايا، فإنّ التشكيل الكامل للخلية بالصدفة هو أمر مستحيل تماماً ولا يمكن أن يخطر على بال. وطبعاً هذا برهان على الخلق. نعلم أنّ التشكيل بالصدفة للتوازنات التي سادت الكون ليست ممكناً، وسوف نُبيّن الآن أنّ الإستحالة تصح أيضاً بشأن التشكيل بالصدفة حتى في أبسط أشكال الحياة، وهي البكتيريا. إنّ أوّل دراسة على هذا الموضوع قام بها (روبيرت شابيرو) أستاذ الكيمياء والخبير في موضع الـ دى.إ.إ.أي (DNA) في جامعة نيويورك، و(شا بيرو) وهو دارويني وتطوري في آن واحد وقد حسب

الإحتمال لألفين من نماذج البروتينات والتي تأخذها تلك البروتينات لتشكل حتى بكثيرها بسيطة واحدة، وذلك بفرض أنّها أنت كلّها بالصدفة، ويجب أن نذكر هنا أنّ "جسم الإنسان يحتوي على حوالي مئتي ألف نموذج منها". وطبقاً لحسابات (شا بيرو)، كان الإحتمال هو (4000010) أي العدد واحد متباوغاً بأربعين ألفاً من الأصفار، وطبعاً لا يوجد لهذا الإحتمال أو الرقم مكافئ في هذا الكون. يوجد 2000 نموذج من البروتينات في بكثيرها واحدة بسيطة واحتمال أن تأتي كُلّها بالصدفة إلى الوجود هو  $1/10^{40000}$  وفي الإنسان يوجد 200000 نموذج للبروتينات وكلمة مستحيل هي كلمة قاصرة عن التعبير عن كون ذلك حدث بطريق الصدفة. وبالتالي، يبدو واضحاً ماذا يعني رقم (شا بيرو). فتفسير الداروينية والمادية للحياة أنّها تطوّرت بالصدفة باطل وبالتالي ولا أساس له من الصحة، وقد علق (شاندرا ويكراء ما نسيغ) أستاذ الرياضيات التطبيقية والفالك في جامعة كاردف على نتائج (شا بيرو)، وقال: "إحتمال التشكيل التلقائي للحياة من مادة ميتة هو واحد إلى عدد (10<sup>40000</sup>) وأصفار بعدها، وهذا الرقم كبير بشكل يكفي لدفن الداروينية وكل نظرية التطور، وبالتالي لم يكن هناك سائل بدائي لا على هذا الكوكب ولا على غيره، وإذا كانت بدايات الحياة ليست عشوائية فمعنى ذلك أنّها نتاج عقل ذكي هادف". ولقد علّق الفلكي (فريد هويل) على هذه النقطة بطريقة مما ثلة لشا بيرو، فقال: "في الحقيقة كيف لنظرية علمية واضحة جداً تقول أنّ الحياة جمعها عقل ذكي، ومع ذلك فإنّ الشخص يتتعجب ويتتساءل: لماذا لا يقبلها بشكل واسع باعتبارها بدائية!! لكن أغلب الظن أنّ الأسباب نفسية أكثر منها علمية". يُعتبر كلا العالمين (ويكراء ما نسيغ) و(هويل) من الرجال الذين قربوا من خلال أعمالهم الكثيرة العلم من النزعة المادية، ولكن عندما واجهتهم حقيقة خلق الحياة كان لديهما الشجاعة بقبول تلك الحقيقة، واليوم يوجد كثير من علماء الأحياء والكيمياء الحيوية ممّن تخلّوا عن القصة الخيالية، وهي أنّ الحياة انبثقت بالصدفة. أمّا أولئك الذين مازلوا موالين للداروينية ويجادلون بأنّ الحياة ما هي إلا نتيجة صدفة، فهم في الحقيقة في حالة رعب، وهذا بالضبط ما كان يقصده عالم الكيمياء الحيوية (ميشيل بيهي) عندما قال: "لقد كانت نتيجة التحقق من أنّ الحياة صُممت من قبل عقل ذكي هو صدمة لنا في القرن العشرين، حيث كنّا نظن أنّ الحياة ما هي إلا نتيجة قوانين طبيعية بسيطة". والصدمة التي شعر بها هؤلاء هي صدمة الوصول إلى العبارات فيها حقيقة وجود الله الذي خلقهم. لقد كان سقوط قضية أنصار المادية أمراً محظوظاً ذلك لأنّهم كانوا يناضلون لينكروا حقيقة لم يكونوا يرونها بوضوح. وفي القرآن الكريم، وصف الله حيرة هؤلاء وإرباك الذين يعتقدون بالمادي كما يلي: (والسماءُ ذاتُ الحُبُوكَ \* إِذْكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ \* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ \* قُتِلََ الْخَرَّاصُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهُونَ) (الذاريات / 11-7). وواجبنا نحن عند هذه

النقطة أن ندعو هؤلاء الذين تأذّروا بالفلسفة المادية، وتحطّّوا حدود العقل أن يعودوا إلى العقل والفطرة السليمة والحكم على الأشياء بصورة سلمية، كما يجب علينا أن ندعوهم ليَدْعُوا جانباً كل حقد وإجحاف وليفكّـروا في التصميم غير العادي للكون والحياة، وأن يقبلوا هذا البرهان البسيط لحقيقة أنّـ الله هو الخالق.. الخالق المبدع لكل شيء وليس غيره، بل الله خالق السماوات والأرض من لا شيء ويدعو البشر الذين خلقهم ليجرّـروا عقولهم ويتفكّـروا. (إنّـ ربّـكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُدّبِّرُ الأمر ما من شفيع إلا من بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمْ ربُّكم الله ربُّكم فاعبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (يونس/ 3). وفي آية أخرى يخاطب الله الناس بما يلي: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل/ 17). لقد برهن العلم الحديث على حقيقة الخلق، وحان الوقت لكل عالم أن يرى هذه الحقيقة وأن يستنبط منها درساً، وإلى هؤلاء الذين يُنكرون أو يتغاهلون وجود الله يجب أن يعرفوا مدى عمق ضلالهم وبُعدهم عن الطريق الصحيح، لأنّـهم يُنكرون الحقيقة ويتطاولون بأنّـهم يفعلون ذلك بإسم العلم. من ناحية أخرى، بهذه الحقيقة التي وضّـحها العلم درس آخر يجب أن زُعْـله لهؤلاء الذين قالوا أنّـهم صاروا يعتقدون بوجود الله، وصاروا يعترفون أنّـ الله خلق هذا الكون، وهذا الدرس هو أنّـه ربّـما كان إعتقادهم سطحياً أو ظاهرياً، وأنّـهم لا يفكّـرون بعمقٍ وشموليةٍ بالدليل على خلق الله للكون ويتحايلون ما يترتب على ذلك من نتائج وعواقب. وتقاعسو عن تلبية المسؤوليات المترتبة على إيمانهم. ولقد وصف القرآن أمثال هؤلاء الناس بما يلي: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنِ ربُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْزِيُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ قُلْ فَإِنَّى تُسَحَّرُونَ) (المؤمنون/ 84-89). لقد وصلنا إلى حقيقة وهي أنّـ الله موجود وأنّـ كل ما في الوجود هو من خلق الله، وأن يبقى المرء لا مبالياً تجاه تلك الحقيقة هو نوع من الضلال والغفلة.. هو الله الذي خلق الكون والعالم الذي نعيش فيه بإنسجام وتكامل بعد أن أوجدنا من العدم، والواجب الملقي على عاتق كل شخص أن يحترم أعظم حقيقة هامة في حياته. فالأرض والسماء وكل شيء بينهما خُلقت بأمر الله الأسمى، وعلى البشرية معرفة الله حق المعرفة وعبادته كما يستحق بإعتباره سيداً مشرفاً أسمى، وهذه الحقيقة وضّـحها لنا الله في القرآن الكريم، فقال: (ربُّ السماوات والأرض وما بينهما فاعبُدهُ واصطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً) (مريم/ 65). المصدر: كتاب (خلق الكون)